

تمهيد:

كان التفكير السائد في علم الاجتماع يرى أن حقيقة المجتمع ونظمه حقيقه موضوعية خارجية مستقلة وكان هذا التوجه واضحا في كل من الفلسفة الوضعية والماركسية والأوائل من الوظيفيين، وبالتالي فهي تعتمد على دراسة هذا الوجود الموضوعي ومكوناته وما بينها من علاقات إلى أن ظهرت التفاعلية الرمزية التي ركزت على الفعل الاجتماعي وعملية التفاعل بالوسيط الرمزي. مما أدى إلى اعتبار حقيقة المجتمع عقلية ترتبط بما يحمله الفعل من معنى وما يحمله الناس في عقولهم من معاني لذواتهم وذوات الآخرين والمجتمع، غير أن أصحاب مدرسة يأخذون بالجانبين الذاتي والموضوعي باعتبار الوجود الاجتماعي كموضوع، بعد أن يتم تشكله ذاتيا بناءا على هذا التباين في النظر الى حقيقة المجتمع ظهرت اتجاهات نظريه لها مواقفها النظرية والمنهجية. (ابراهيم عيسى عثمان 2007، ص 239)

نظرية الظاهراتية: phemonology

تمهيد :

تعتبر الظاهراتية إحدى النظريات السوسيولوجية المعاصرة التي لاقت قبول واسعا بين المهتمين بعملية التنظيم السوسيولوجي، كما تعتبر همزة وصل بين العديد من أنماط أو فروع العلوم الاجتماعية، و لاسيما الفلسفة وعلم الاجتماع وان كانت تشمل جوانب أخرى ثقافية وتاريخية وأدبية. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 205)

1- الجذور الفكرية للنظرية الفينومينولوجية:

جاءت الإسهامات الفينومينولوجية (الظاهرة) في سياق التيار الفكري الفينومينولوجي منذ أفلاطون وأفلوطين والمدرسة الظاهرة لدى ابن داود وابن حزم وحتى ابن خلدون والمقريري، مرور بفلسفة ديكرت و لبيتنز، و كانت و هيجل وصولا إلى دلتاي و برينتانو و كارل شتوف و هوسرل و شلر، و هيدجر و بوتتي، وماكس فيبر و لوكرمان و بيرجر و موريس و ناتاتسون.

وهو الذي تأثر بفكر كل من شوتز و ماكس فيبر و استخدام مفهوم الفرد، والنمط على أساس اعتبارهما وسيلتين لتحليل وعي الذات البينية المشتركة inter subjectif consciousness ، وصولا إلى الفينومينولوجيين و جين الوجوديين المعاصرين أمثال هيدجر، و سارتر، وغيرهم من علماء الاجتماع مثل جروفتش، وفركاندت و تيودورليث و مونيرو، و بيرفالد، وبارسونز و تيرباكيان و جوفمان ، و جارفنكل و ميلر، و هابرماس و سيكورل و ماتزاودوجلاس، والفن جولدنر و جورج أونيل و ميرتون.... (فادية عمر الجولاني، 2009، ص 155-156)

كما جاءت تحليلات معظم رواد الفينومينولوجية في فترات اضطرابات سياسية واقتصادية شككت عموما في مصداقية النظام الاجتماعي الرأسمالي والشيوعي، حيث كانا يسيطران على العالم آنذاك، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية.

كما كان لظهور الشيوعية و الفاشية و النازية كنزعات سياسية ديكتاتورية أثرا كبيرا في تمرد العديد من العلماء الشبان، لاسيما ما حدث في ألمانيا نتيجة حكم هتلر النازي، وقد كتب العديد من مظاهر التمرد الذي ظهر هناك وخاصة بعدما تم التحفظ على أفكار العلماء والباحثين الذين سعوا أساسا لطرح أفكار بديلة لطبيعة السياسة الديكتاتورية مثل النازية، وهذا ما جعل الكثير منهم يهرب خارج ألمانيا إلى باقي الدول الأوروبية وإلى أمريكا.

كما ظهر ذلك في أنصار مدرسة فرانكفورت، إلا أن الاتجاه الفينومينولوجي قد سلك نهجا فكريا آخرًا متميزا نسبيا على الاتجاه النقدي، وهذا ما ظهر في كتابات هوسرل الذي كتب معظم كتاباته بعيدا عن رؤى البوليس النازي، وتصورات شوتز التي ظلت كامنة حتى بعد هجرته إلى الولايات المتحدة. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 207-208)

وقد بدأت الظاهرة كحركة في الفلسفة الأوروبية وزادت أهميتها في علم الاجتماع خاصة علم الاجتماع الأمريكي، ويستمد الخط الفكري الرئيسي الذي تشكله الظاهرة الأمريكية المعاصرة، بداية من الفيلسوف الألماني آدموند هوسرل وهو الذي ترجع مفاهيمه النظرية لأعمال الفيلسوف الألماني عالم النفس برينتانو، الذي بدوره أخذت تلك المفاهيم وخاصة القصدية والوعي والرد من الأعمال اللاهوتية الأوروبية في العصور الوسطى.

والتي شحنتها الفلسفة العربية الظاهرة بتلك المفاهيم عن طريق لبيتنز، الذي أخذها عن أعمال صديقه ابن حزم وعن أعمال ابن رشد، التي ترجمت وتسربت إلى الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى، فضلا عن أعمال الإمام الغزالي

وغيره من فلاسفة العرب المسلمين، كما تعتبر كتابات شوتز بمثابة الجسر الذي عبرت منه الظاهرية من ألمانيا وأمريكا. وهذه الكتابات تعتبر المصدر الإلهامي لأصحاب هذا الاتجاه من الاجتماعيين الأمريكيين، أمثال: موريس ناتانسون، وبيتر برجل ومن الاثنوميتودولوجي جارفينكل. (فادية عمر لجولاني، 2009، ص 11-12)

2- تعريف النظرية الفينومينولوجية (الظاهرية) :

أول من اصطنع مصطلح الفينومينولوجية آدموند هوسلر ثم شاع استعماله عند أتباعه أمثال جاسبروهيدجر وماكس شيلر، وكان هذا الاخير الممثل الحقيقي لهذا التيار الذي يؤكد على الوصف الدقيق لمعطيات الواقع في تجاربنا المباشرة، لمعرفة مكونات الظاهرة دون الالتفات الى جوانبها السطحية (معن خليل عمر، 2005، 243)

كما كان هوسلر أول من طرح تعريفا الفينومينولوجية بأنها «محاولة لدراسة الأشياء» التي يمكن التعرف عليها بواسطة حواسنا، وهذا يعتبر عنصرا أساسيا لفهم الفينومينولوجية phenomenology (الظاهرة) فهي تعني أنه لا يمكن التعرف على الأشياء أكثر مما لدى الأفراد من خبرات حصلوا عليها مباشرة من حواسهم. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 207)

قصد هوسلر بالظاهرية محاولة لوصف الأساس النهائي ultimate للتجربة الإنسانية، عن طريق محاولة النظر إلى ما وراء المرئي في التجارب اليومية، لوصف حيثيات هذه التجارب.

كما رأى أن تجارب الفرد هي التي تحدد قدراته في تحديد أصل ومنبع الظاهرة المعاشة، وتحديد أصل أو الطبيعة الأولية للظاهرة هي الأساس لكل التجارب، لأنه من خلالها يمكن فهمها والوعي بها، ومن ثم يجب التوقف أو التعليق epoche. وهو أن يحرر الباحث أو الاجتماعى نفسه من جميع المواقف المسبقة وتحييد نفسه خارج أفكاره المعتادة عن العالم.

وفي رأيه هذه الوسيلة الوحيدة التي تمكن الباحث في اختيار منبع الوعي ومصدر التجارب في الماضي والحاضر والمتوقعة مستقبلا، والتي تحكم وجود الإنسان ومعرفته. (فادية عمر الجولاني، 2009، ص 13-14)

كما تركز الظاهرية على مفهومها الأكبر " التخلل الذاتى " أو الذوات المتداخلة التي تعني إجابات على التساؤلات الآتية:

- ✓ كيف تعرف أفكار الآخرين؟
- ✓ كيف نعرف أنفسنا؟
- ✓ كيف يتم تبادل رؤانا وإدراكاتنا مع الآخرين؟
- ✓ كيف يحصل التفاهم المشترك بين المتفاعلين؟
- ✓ كيف يتصل الفواعل فيما بينهم؟ (معن خليل عمر، 2005، ص 246)

وقد تعددت المصادر المعرفية للظاهرية الاجتماعية، وخاصة كما تجلت في كتابات ألفرد شوتز حيث شملت الفلسفة الظاهرية خاصة عند هوسلر، وما جاء به فيبر عن الفعل الاجتماعى، وعملية الفهم التي تقوم على استنباط المعنى

وتأويله، ثم ما جاء به منهايم خاصة في مجال علم اجتماع المعرفة. (ابراهيم عيسى عثمان، 2008، ص 239-240)

إن تطور الظاهراتية في الفلسفة يمثل تحد لكل الفرضيات الأساسية في الطبيعة التجريبية للعلم، فالظاهراتية تطرح تساؤلات جادة ونوعية حول الوجود التجريبي لعلم الاجتماع، وهي بذلك تتحدى المعنى المتضمن في معرفه علم الاجتماع التقليدي، إذ أن بعض الاجتماعيين يميل للاعتقاد بأن الظاهراتية الحديثة تمثل النقيض للوضعية المحدثة في علم الاجتماع.
(فادية عمر الجولاني، 2009، ص 11)

3- الافتراضات الأساسية للفينومينولوجية:

- هوسرل وأزمة المعرفة العلمية:

يعتبر ادموند هوسرل (1859-1938) المؤسس التاريخي للاتجاه الفينومينولوجي الفلسفي، كما أنه الأول من حاول إعطاء تعريف له، هذا الفكر الذي ظهر في ألمانيا خلال العقود الأخيرة من القرن 19 ووائل القرن 20 كرد فعل للظروف الاقتصادية والتاريخية والسياسية والاجتماعية ما قبل ظهور النازية إبان حكم هتلر، حيث حاول أن يعيد المجد القديم للفلسفة واعتبارها أم العلوم الحديثة، وانتقد النظريات الوضعية التي تخضع الظاهرة الاجتماعية للدراسة الامبريقية التجريبية ونادى بضرورة تبني المبادئ التي تؤمن بأهمية العقل والوعي في تفسير الظاهرة.

كما امتزجت افكاره بالعديد من الآراء السيكولوجية من علماء النفس الذين اكتسبوا شهرة متميزة خلال معاصرتهم لهم.

- أسس الفينومينولوجية عند هوسرل:

- **الظاهرة الاجتماعية والسيكولوجية:** وضع هوسرل تصوراته على أساس مهاجمته للنزعات الوضعية والسيكولوجية التي سيطرت أفكارها على الفكر الأوروبي آنذاك حيث بالرغم من أن حياته بدأت بالرياضيات والفيزياء إلا أنه سرعان ما تأثر بتحليلات علم النفس وعلمائه، ولقد طرح في كتابه الأساسي فلسفة الرياضيات ضرورة تحليل الأفكار على أساس سيكولوجي خالص، واعتبر أن علم النفس الميداني قادر على إعطاء الكثير من المعارف الرياضية.

كما رأى أن تبني المذهب الوضعي يؤدي إلى عدم فهم الظواهر السيكولوجية والاجتماعية.

- **المعرفة وعلم الحياة:** جاءت محاولات هوسرل لوضع المنهج الظاهراتي لفهم عالم الحياة والبحث عن الحقيقة والمعرفة الموجودة فيه، هذا العالم الذي يشير إلى وعي الإنسان بالعالم الذي يقوم على منهج التأمل والاستقراء و الدراسة بصورة عقلية واقعية لتفسير طبيعة العالم، الذي لا يمكن إدراكه إلا عن طريق الوعي من خلال الإدراك الحدسي، من خلال أنشطة الحياة اليومية، التي تعتبر المصدر الأساسي للمعرفة العلمية ككل، حيث أكد هوسرل على ضرورة

إعادة الصلة بين المعرفة العلمية وهذا المصدر وهو خبرة الحياة اليومية أو ما
اسماه بعالم الحياة. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 212-
(218

4- تقييم النظرية الفينومينولوجية:

لم تخرج الفينومينولوجية في تصورها للظواهر الاجتماعية عن نطاق النظريات
السوسولوجية الكبرى، لاسيما البنائية الوظيفية مثل تركيز كل منهما على القيم
والأفكار والمعرفة والمعايير باعتبارها أهم اللبنة الأساسية في تشكيل طبيعة
النظام الاجتماعي، هذا ما ظهر في تفسير كل من برجر و ليكمان خاصة في
تصوراتهما حول التشكيل الاجتماعي للواقع.

✓ جاءت تصورات أنصار الفينومينولوجية مرتبطة كلياً بسوسولوجيا المعرفة،
ومن ثم فهي قد لا ترقى لمستوى النظرية بمفهومها العام ولم تقدم على
الأقل منظورا متميزا لدراسة المجتمع أو النظام الاجتماعي.
✓ جاءت كثير من تصورات ومفاهيم النظرية مبهمة غامضة مما دل على
ضعف توضيحها للمفاهيم التي استخدمتها، مثل مفهوم الحياة اليومية أو
عالم الحياة والعلاقة بينهما.

✓ لم يبين أنصار النظرية كيفية تنظيم المعرفة أو الحصول عليها في العالم
المتغير السريع الحالي، إلا عن طريق العقل والإدراك، دون الاستفادة من
نتائج العلوم الطبيعية الأخرى ونظرياتها ومناهجها، فقط سعت
الفينومينولوجية إلى إحياء مناهج الفلسفة العقيمة التي تم هجرها لقرون
طويلة بسبب ظهور المناهج العلمية الوضعية التي انتقدتها الفينومولوجية
بشدة.

✓ جاءت تحليلات النظرية مرتبطة بتصورات علماء الاجتماع التقليديين خاصة
فيبر ودوكايم وماركس وسيمل، دون الأخذ بمحصلة الانتقادات التي وجهت
لهم وبهذا تضاعفت محصلة الانتقادات الموجهة للفينومينولوجية. (عبد
الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 238)